في استعادة المساء ؛ قراءة فينومينولوجية

عبدالله المطيري

المدينة المعاصِرة لا تنام. عادة ما تُستخدم هذه الواقعة للتسويق السياحي للمدن الحديثة. المدينة التي لا تنام مدينة مليئة بالحياة والخيارات والأحداث. عالم مشوِّق للجميع نهارًا وليلًا. مدينة النور، كما تُوصف عادة، باريس تجمع في هذه التسمية النورَ بمعناه الفيزيائي، فهي مدينة السهر والحياة النشطة في الليل، وكذلك النورَ بمعناه الفكريّ كممثلة أساسية لعصر الأنوار الأوروبية: عصر العقل والعلم. أصبح الظلام هنا مناسبة للاحتفال بالنور. النورُ الإنسانيّ هذه المرَّة علامة القوّة والتقدُّم والسيطرة على الطبيعة. في ذات الوقت يُعاني الإنسان المعاصر من مشكلة النوم. الإحصاءات كثيفة عن انتشار مشكلة قلّة النوم أو عدم الحصول على القدر الكافي من النوم في المجتمعات المعاصرة. نلاحظ هنا أنَّ قلّة النوم هذه ليست مرتبطة بسبب محدَّد كما نقرأ في القصائد القديمة حين يُفارق النوم عين الشاعر بسبب فراق مَن يُحب. قلّة النوم المعاصِرة غير محدَّدة السبب، وغير مؤقتة، وكأنها أصبحت عرضًا لنمط من أنماط الوجود. الوجود الذي لا ينام. وجود اليقظة الدائمة. اليقظة التي لم تعد تُبصر شيئًا.

هل الإنسان الذي لا ينام نتيجة طبيعية للمدينة التي لا تنام؟ هل المدينة اليوم، مع تقدُّم التكنولوجيا المتاحة للأفراد، لا تزال محدودة بحدود الجغرافيا؟ هل يمكن الحديث عن مغادرة للمدنية التي لا تنام دون التعاطي مباشرة مع المدينة التي أصبحت متوفرة في قبضة اليد في أجهزة الجوَّال الحديثة؟ كل هذه الأسئلة مشروعة لكنها تتجاوز أهداف هذه الورقة التي لا تتجاوز محاولة الإنصات لأنماط الوجود الحديثة ودلالاتها على علاقة الإنسان بغيره، علاقة الإنسان بالآخرين وبنفسه وبالزمان والمكان.

يتكوَّن عنوان هذه الورقة من كلمتين: استعادة المساء. عادة ما تُطلق كلمة "المساء" للإشارة إلى الفترة الزمنية من بعد الظهر إلى المغرب، وأحيانًا تمتدُّ إلى منتصف الليل. الفترة الزمنية التي تلي الزوال. زوال الشمس وحركتها باتجاه الغروب. حركتها باتجاه الظلام. هذه الظاهرة الطبيعية، أي اتجاه الشمس نحو الغروب، يترافق معها شكلٌ من أشكال الوجود يمكن أن نُسمِّيه المساء بالمعنى الوجودي للكلمة. المساءُ كلمة رافقت معاني متعددة لها ما يجمعها. حين يُقال قهوة المساء أو أُمسية شعرية، فإنها تُشير بالعادة إلى شكل من أشكال الاسترخاء والهدوء. لذا، فالمساء علاقة مع الكائنات حولنا. علاقة عنوانها الأساسي انسحاب ما من فعاليّة النهار. إذا كان الإنسان في النهار يُباشر العالم ويُبادر لإنجاز مشاريعه، كما يفعل الفلّاح حين يستيقظ ليباشرَ العناية بمزرعته، وكما يفعل الراعي حين يُباشر عنايته بأغنامه أو إبله، فإن هذا الإنسان يبدأ بالانسحاب من هذه المباشَرة بالتدريج في المساء. هذا الانسحاب يفتح معه عوالم جديدة يمكن وصفها بعوالم المساء. هذا الانسحاب يُسمى الإمساء.

يقول الشاعر منصور المفقاعي في أغنية سلامة العبدالله الشهيرة "أرجوك جفَّت دموعي":

ما تدري أنه عليك الود طاويني
ما تدري إني عليك الليل ما أمسيته

في إشارة دالّة على أن الإمساء ليس حالة طبيعية تنتج بشكل ضروري عن الظاهرة الفيزيائية لغياب الشمس وحلول الظلام. الإمساء علاقة قد تتحقق وقد لا تتحقق، لذا فهي تعكس وجود الإنسان باعتباره كائنًا شعوريًا متَّصلًا بطريقة خاصة بما حوله. أَذكر أنَّ الكبار كانوا يقولون لنا "أمسوا" ونحن صغار حين نزعجهم باللعب في الليل. "أمسوا" هنا معناها اِهْدَؤُوا. هناك عالم خاص بالمساء لا يتوافق مع صخب فعالية اللعب المزعج. أَمسوا هذه تُقال للمفرد "أمس"، وهو ما يُثير مباشرة التساؤل حول العلاقة بين "أمس" بمعنى اليوم السابق و"أمس" بالمعنى المقصود هنا: اهدأ واستقر. وكأنهم يقولون إن ذلك النشاط والفاعلية تنتمي إلى أمس. اليوم الذي انقضى، يوم النهار وعالم النهار. هدوء البنك وسكون ممرَّاته ينتمي إلى صخب عالَم النهار. عالَم الحساب والاستثمار. في المقابل، فإنَّ صوت السامري صوتٌ للسكون حتى ولو ارتفع. صوت سكون الليل. عالم الخيال والأحلام.

هذا الانسحاب من فعالية مباشرة الوجود ينفتح معه عالم المساء. الإمساءُ، بهذا المعنى، شكلٌ من أشكال الوجود، وشكلٌ من أشكال التناغم مع الكائنات الأخرى. حين ينسحبُ الإنسان تنفتحُ، مع انسحابه ذلك، نوافذ على وجود مختلفة. حين ينكفّ الإنسان يسمح لغيره بالتواجد، وبالتالي يُتيح لذاته أفقًا أوسع مع الوجود الاستقبالي. الذاتُ

باعتبارها مستقبِلَة، متلقية، مُنصتة. لذا يمكن القول إن عالم المساء هو عالم الفنون بالمعنى الواسع للكلمة. الفنون هنا تشمل فنون السرد والحكايات والشعر، وكذلك فنون الموسيقى والأصوات. التعويلُ على اللغة، كما هو الحال في الحكايات والسوالف، شكلٌ من أشكال الاتصال المختلف بالموجودات. لغة النهار ليست كلغة المساء. لغة النهار لغة التداول والتفاوض والأوامر والنواهي. لغة حسابية رياضية. لغة واقعية بالمعنى الحاد للواقع. في المقابل، فإن لغة المساء لغة حالِمة. تعيش في عالم آخر. عالم يُراهِن على الوجود اللغوي ذاته. الحكايات والأشعار والطُرف والآداب والفنون عمومًا هي شكل من أشكال الإنصات للغة. نسمعُ كثيرًا أن الحالات الإبداعية تعني أنَّ النَصَّ يكتبُ نفسه، أو حين يقول الشاعر إن القصيدة هي مَن كتبته، أو على الأقل من خلال الإقرار بأن عملية الكتابة الإبداعية غير مفهومة، ولا يمكن تفسيرها ضمن علاقات سببية محدَّدة. هذا كله يُعبِّر عن شكل خاص من أشكال التعاطي مع اللغة يُسمِّيه هايدجر بالحديث مع اللغة في مقابل الحديث عن اللغة. الإنسان في حال الحديث مع اللغة يتحوَّل إلى علامة لغوية يُعبِّر الوجود من خلالها.

هذا الإمساء وهذا الانسحاب متَّسق، بشكل عام، مع سلوك الكائنات الأخرى حيث تنسحب وتستكنّ مع اقتراب الظلام. الظلام يُحدِث تغييرًا جوهريًا في علاقة الكائن مع الخارج. إذا كان النور يُعطي الإنسان فرصة واسعة للتحكّم فيما حوله من خلال قدرته على مدِّ معرفته لمساحة واسعة، وبالتالي اتخاذ قرارات في هذه المساحة، فإنَّ الظلامَ يتحرَّكُ باتجاه العكس. في الظلام تتقلّص معرفة الإنسان بالخارج، لذا ينفتح على الخارج. نلاحظ هنا أن الانفتاح نتيجة لتقلص سيطرة الذات لا العكس. الذات في الظلام ذات محدودة، وبالتالي تتصل بالخارج باعتبارها ذاتًا مستقبلة ومتلقيّة. في الظلام تُولد عوالم الخيال والجن والكائنات العجيبة وحكايات الماضي والمستقبل. في الظلام تَخِفُّ قبضة الحاضر على الإنسان.

المساء بهذا المعنى انتقال تدريجي لعالم الظلام، عالم الليل. تحوُّل في العلاقات يُولَد من رحم الاكتفاء. هذا الاكتفاء لا يعني الحصول على كل شي، ولكنه يعني وصول الإنسان إلى اكتمال دورته اليومية من خلال عيش هذا اليوم وفق ترتيب بسيط. هذا الاكتفاء يترافق مع رضا عام. قناعة تجعل من الإنسان يجلس دون أن تكون أفكاره واقفة. هذا الاكتفاء يمكن ملاحظة غيابه اليوم في ثقافة المدينة التي لا تنام. في هذه المدينة لا توجد أيام. أي لا توجد وحدات من الوجود مكتفية بذاتها. لا يوجد يوم مكتمل. الخطط أبديّة. ما يريده الإنسان لا يمكن استكماله في يوم وليلة. لهذا السبب لا توجد مساحة للانسحاب. كل راحة ليست سوى استعداد جديد للانطلاق. المدنية المعاصرة يمثلها السوبرماركت الحديث بشكل واضح. يعمل السوبرماركت 24 ساعة في اليوم 7 أيام في الأسبوع. هذا يعني أنه أزليّ ولا معنى للحديث عن أيام وساعات. التعبير الدقيق لعمله أنه فاتح طول الوقت. لذا لا يوجد فيه أيام، بل "شفتات" عمل يُفترض ألا يشعر بها الزبون. في السوبرماركت لا يوجد صباح ولا مساء، ولا يوجد صباح الخير ولا مساء الخير. هذا المكان لا مساحة للظلام فيه. لا يَسترخي ولا يَهدأ. محلات التجارة القديمة كانت تفتح في الصباح وتُغلق في المساء تعبيرًا عن نهاية شكل من أشكال الوجود وبداية آخر. في تلك المحلات تُولد علاقات مرتبطة بالزمن. علاقات الصباح تُعبِّر عن البداية والافتتاح والاستفتاح. الزبون الأول يحمل معنًى مختلفًا، دلالة على بداية جديدة، لذا الزبون الأول مُبارك ويستحق معاملة خاصة. نُلاحظ أنه لا يوجد زبون أول في السوبرماركت باعتبار غياب الزمن. دورة النور والظلام تُحقِّق اكتمالًا ما، لم يعد متوفرًا في المدينة التي لا تعرف الظلام. نُلاحظ هنا أنَّ الظلام بالمعنى الذي نتحدَّث عنه لا بدَّ ألا يكون من فعل الإنسان. أي ألا يكون شكلًا آخر من أشكال سيطرته للعالم وترتيبه للوجود. الظلام الذي يُحدث انفصالًا مع هذه الذاتية هو الظلام العام. الظلام الخارجي الذي يُحدث في الإنسان محدودية تنفتح معها نوافذ وجود مختلفة. يُرتِّب الإنسان المعاصِر سكنه الخاص بطريقة تكنولوجية جعلته يتحكَّم في النور، بحيث تُظلم غرفته متى شاء، وتُضيء متى شاء، ولكن هذا ليس إلا امتدادًا لعالم النور. النور الذي يُقرِّر أن ينحجب مؤقتًا من أجل استراحة محارب.

مع المدينة الحديثة المعزَّزة بالكهرباء لم تعد القيلولة مهمة. القيلولةُ كانت شكلًا من أشكال الانتقال من عالم إلى عالم. ذروة وجود ما. القيلولةُ تعبيرٌ عن استجابة الإنسان لضعفه والترتيب لانسحابه من الوجود الفاعل لفترة قصيرة من الزمان. تقول المقولة الشعبية: "قِيلُوا، فإنَّ الشَّياطينَ لا تَقِيلُ". الشياطين لا تحتاج إلى القيلولة بينما يحتاج الإنسان. الشيطان في الثقافة الشعبية لا يَدُلُّ فقط على معنى أخلاقي متعلِّق بالشر، بل يمتدُّ للتعبير عن القدرات الخارقة. يُقال فلان شيطان، يعني أنه يملك قدرات خارقة من ذكاء أو غيره. تعبير القيلولة ملفت. تسمية هذا النوم السريع في وسط اليوم بالقيلولة يستحق التأمل. الإقالة شكل من أشكال الإعفاء. يُقال: قدَّم فلانٌ استقالته أي طلب الإعفاء من عمله. ويُقال: أَقِيلُوا عثرات الكرام، أي

أُعْفُوهم من تحمّل نتائجها. وكأنَّ الإنسان يعفي نفسه من عبء الوجود الفاعل ولو لدقائق بسيطة. هذا الإعفاء يُعبِّر عن الانسحاب الكامن في الإمساء. ويُقلّ الإنسانُ الإنسانَ أي يحمله. أَقلَّتهم الطائرة أي حَمَلتهم. وكأنَّ القيلولةَ هي أنَّ الأرض تحملُ الإنسان لفترة بعد أن أعياه حملُ نفسه. هذا النمط من الاسترخاء يمكن أن نجده في كلمة القيلة التي تعني الخروج للترفيه. هنا القيلة ليست للنوم، ولكنها لشكل خاص من أشكال الوجود يتسم بالاسترخاء. المتوقع في القيلة السوالف والشعر والطرف وليس البيع والشراء وعقد الصفقات. ولعله من اللافت أنَّ القيلولةَ مصدر قالَ، وكأنه تعبير عن الطبيعة المشتركة بين عالم اللغة وعالم الوجود المستقيل في القيلولة. ولعلنا نلاحظ كذلك أن الاستقلال من ذات الجذر. استقلّ الإنسان انفرد وتحرَّر. وكأنَّ القيلولةَ إعلانٌ لحرية الإنسان واستقلاله عن حمّى وجود النهار.

الترفيه. من المهم هنا التأمل في العلاقة بين الترفيه والإمساء. المدينة المعاصرة مليئة بخيارات الترفيه ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنَّ المساءَ كامنٌ في الترفيه. قد يكون الترفيه شكلًا من أشكال عالم النور والنهار حين يكون مشروعًا اقتصاديًا. الاقتصاد عالم النور. عالم الحساب والتقدير. رهان على عدم التوقف، وهذا ربما ما يجعل عبارة "لا يوقف" متكررة كثيرة في عوالم الترفيه الحديثة، وشبه غائبة عن عوالم الترفيه القديمة. الترفيه بالمعنى الاقتصادي يُعبِّر عن هندسة اجتماعية معيَّنة توفر للإنسان، بجاذبية عالية، مساحاتٍ أوسع من الحركة. صحيح أنَّ الترفيه يراهن على شكلٍ من أشكال الاسترخاء عند الإنسان. لكن هذا الاسترخاء الجسديّ، المتوفر مثلًا في مقاعد مريحة في حفلة غنائية، قد يكون محاطًا بعالم متوتر من دعاوى الاستقطاب الاجتماعي. أعني أن الترفيه قد يكون شكلًا من أشكال التعبير الاجتماعي عن الحضور والمشاركة بدلًا من أن يكون انسحابًا من هذا العالم واستسلامًا لعالم آخر. إذا كان الإمساءُ شكلًا من الاكتفاء وبالتالي الانكفاء على أشكال أخرى من الوجود، فإن الترفيه قد يكون شكلًا من أشكال النهم. هذا كذلك ينطبق، بشكل أوضح، على فعاليات الترفيه أو الاسترخاء التي يعلن عن غاياتها الأخرى. مثلًا حين يُقال "عشاء عمل"، فإن هدف العمل المنتمي إلى عالم النهار يُرافق العشاء، لكنه هنا يستعينُ بحالةٍ من الاختلاف التي يوفرها العشاء بعيدًا من أجواء العمل التقليدية، لكن العشاء يبقى عشاء عمل في المقام الأول. حفلات الزواج التقليدية كانت أماكن مفتوحة للجميع. الدعوة عامة. هذا شكلٌ من أشكال التخفُّف من السيطرة. في المقابل، هناك شكلٌ من أشكال حفلات الزواج تتم على منطق الدعوة الخاصة الاختيارية، والذي قد يُعبِّر أحيانًا عن منطق عمل بحيث يكون اختيار المعازيم شكلًا من أشكال تنسيق علاقات اجتماعية نفعية.

من المهم هنا التذكّر أن المساء يسبق النوم. أي أنه مرحلة يصل من خلالها الإنسان إلى حال النوم. هل يمكن أن ينام الإنسان دون أن يمر بالمساء. هكذا مباشرة من عالم اليقظة إلى عالم النوم؟ قد تساعدنا كلمة evening على الإجابة عن هذه الأسئلة، أو على الأقل تساعدنا على طرحها بشكل أفضل. تُحيل هذه الكلمة عادة إلى فترة آخر اليوم من بعد الظهر إلى منتصف الليل. وبالتالي، فهو عالم ينتمي إلى عالم اليقظة باعتبار أنه يسبق النوم ولكن ليس لعالم النهار. يقظة الانسحاب. يقظةٌ تنظر بعينٍ أخرى. اللافت كذلك أن ذات الكلمة تعود إلى جذر even، والذي يُحيل إلى معانٍ متعددة منها الثنائية الزوجية، فالـ even number هو العدد القابل للقسمة بالتساوي على 2. وبالتالي تعني الكلمة التساوي. الثنائية هذه تقوم على الاختلاف النوعي. إذا كان عالم النور يراهن على وجود أحادي فإنَّ عالمَ الإمساء عالمٌ ثانٍ. عالم آخر. ثنائية المساء متوازنة غير مدفوعة برغبة الاستحواذ المهلكة. ومن معاني الكلمة كذلك معنى السلاسة even bed تعني مثلًا سريرًا منسقًا بطريقة ليِّنة وسلسلة. هذه السلاسة تَعِدُ في داخلها بالنفاذ بشكل سليم للجهة الأخرى. جملة من نوع We are optimistic that the situation would even out eventually تَعِدُ بالنفاذ بسلام. نلاحظ أن كلمة even كامنة في بداية كلمة eventually، ونجد أن نقيضها كلمة immediately، والتي تعني المباشرة: المنطق الذي يُراهن عليه عالم النور والنهار. كلّ هذه المعاني كامنة في المساء. إذا كان النهارُ مناسبًا للصراعات والجدالات والطرق التي تحاول الوصول المباشر، ولو بطرق ملتوية، فإنَّ المساءَ وجودٌ سلسٌ: انتقال آمن. تحوّل الاختلاف المتصالح مع الشراكة. مرافقةُ even للكلمات الأخرى ملفتة. تعبيرات من نوع even though و even if والتي تعني "حتى لو" تُعبِّر عن الاستقلال والحرية التي أنصتنا إليها في تعبير القيلولة. "حتى لو" تعني أنَّ هناك إمكانية أخرى رغم كل شيء. لذا، فالمساء شكل من أشكال المقاومة والاستقلال والحرية. مقاومة بلا عداوة، واستقلال بلا عزلة، وحريّة بلا لا مبالاة. هل غياب المساء يعني غياب كل هذا؟ غياب هذه السلاسة في الوجود والتي تُسلِّم الإنسان للنوم؟ النوم استسلام لعالم آمن. الإنسان النائم بلا حول ولا قوة إلا بغيره، إلا بخير ما يسلّم له نفسه. هل هذا يُفسِّر لنا "عنف التنويم"؟ العنف الذي يدفع به الإنسان نفسه للنوم من خلال العقاقير الكيميائية؟ حتمية المادة بدلًا من سلاسة الوجود؟ ماذا عن الاستعادة؟ العنوان يقول باستعادة المساء. كيف

يمكن استعادة المساء؟ القول بالاستعادة يفترضُ وجودًا سابقًا لما نرغب في استعادته. كان المساءُ موجودًا ثم ذهب ونريد استعادته. أين ذهب المساء؟ هل ابتلعه النهار؟ النهار الذي تمدَّد بفعل المدينة المعاصرة. الاستعادة رغبة مدفوعة بحنين، وقد تكون مدفوعة كذلك بشعور بالندم. استعادة المفقود. هناك شعور عميق بالفقد. الاستعادة كذلك مهمّة، رحلة ومغامرة. استعادة المساء. الاستعادة بهذا المعنى طلب لعودة المساء. توسُّل ربما. هل يجب أن تكون مهمة استعادة المساء تنتمي إلى عالم المساء ذاته أم أنها يمكن أن تكون شكلًا من أشكال عالم النهار؟ عالم السيطرة والاستحواذ وترتيب العالم. إذا كانت الاستعادة، استعادة المساء، شكلًا من أشكال الإمساء، فلا بدَّ أن تكون توسّلًا. أمل ودعاء لا استحواذ واستحقاق. أي أنها مهمة تنتمي إلى عالم المساء ذاته، العالم الذي تتصل فيه الذات بحدودها في لقاءٍ مع الآخرية بكل ما في هذه الآخرية من تجاوز لحدود الذات.

والاستعادة تختلفُ عن الإعادة باعتبار أنها تحمل في داخلها محاولة مفتوحة على التكرار والمعاودة. مهمة الاستعادة ليست مهمة خطية تتمثل في غاية وهدف وبينهما رابط من تحقيق. المهمة هنا أقل طمعًا. طلب بلا استحقاق يجعل منه ضروريًا. بهذا المعنى تكون الاستعادة طقسًا ونداءً. وإذا كانت الإعادة محاولة لشطب التاريخ باعتبارها مهمة إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح وإلغاء لما حدث، فإنَّ الاستعادة مغازلة تنطلق من حدث المغادرة ذاتها وربما من تسامح ما معها. لذا ليست استعادة المساء معركة جديدة ضمن معارك إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح وتقويم الوجود الإنساني المنحرف. إنها مهمةٌ بلا عصا، وبلا غواية من عنف. استعادة. هل في الاستعادة سعادة ما؟ كامن في الاستعادة معنى العود. والمساء محفوف بيقين عميق بعودة النهار من جديد. هذا العود ربما كامن في الطمأنينة والرضا الكامِنتَين في المساء. "غدًا ستُشرق شمس" عبارة تنتمي إلى عالم المساء. العالم الذي يُعوِّل على عود متجدد تتفتح معه الإمكانات من جديد. هذه الثقة في الوجود تضعف مع عالم النور المعاصر الذي يُراهن على الاستحواذ المدوَّن والمسجَّل الآن وهنا. العود بهذا المعنى من الثقة لا يتحوَّل إلى تكرار باعتبار أنه يحمل معه إمكانات جديدة في كل مرة. جِدّة لا تقوم على منافرة لما سبقها، بل على حدوثها الذي يفاجئ في كل مرة.

التقنية الحديثة أدمجت عالم النهار في وجود الإنسان المعاصر بشكل حاد. تَعِدُ تلك التقنية الإنسان المعاصر بتواصل مستمر. أي أن يبقى متصلًا. هذا يعني أن يكون في حالة مستمرة من الاستقبال والإرسال. حالة افتراضية: أي إمكان مستمر يحمل في داخله قلقًا من الانقطاع يتم تخفيفه من خلال الاطلاع المستمر على مواد مختلفة توفِّرها له تيارات متعددة من المستثمرين في المحتوى الإعلامي. يفتح الإنسان المعاصر اليوم جهازه الجوَّال بشكل مستمر انطلاقًا من إمكانية ما. لم يعد الأمر إراديًا بقدر ما أنه أصبح عادة كامنة في وجود الإنسان. يتحدَّث الكثير عن ظاهرة الخوف من التفويت fear of messing out المعروف بـ FOMO، والذي يُذكِّرنا بخبرات في الطفولة تبدأ بمحاولة أحد الأطفال خلق سؤال مفتوح: "ما دريت وش صار؟"، هذا السؤال الذي يجعل الطفل الآخر، مباشرة، في حالة من التبعيّة له للتعرُّف على ما حدث رغم أنه قد لَم يحدث شيء. ما يفعله الطفل الأول هنا هو خلق فجوة بالسؤال الحاد تجعل من الطفل الثاني يشعر بأنه قد فاته أمر مهم. التقنية الحديثة تُوفِّر في كفِّ الإنسان إمكانات تزعم في داخلها أنَّ أمرًا مهمًا يحدث. نلاحظ أن انجذاب الإنسان هنا، وتعلقه بهذه الأحداث، يتحقق في حالة من المشاهدة. مشاهدة عن بُعد، وإن كانت تقترب من أقرب تفاصيل الآخرين. مشاهدة لا ترتبط بإمكانات تنتمي إلى وقائع وجود الفرد. لذا تخلق حالة من المتابعة السلبية وكأن الإنسان يعيش في خبرة ذهنية منفصلة عن حياته. يبدو أنَّ تيار المعلومات، هذا الذي يمر بشكل مستمر من أمام الإنسان، لا ينتمي إلى عالم العود الذي يَعِدُ به المساء. إذا كان المساء يَعِدُ بالتكرار المتجدد، وبالتالي فإن ما لم يتحقق اليوم يمكن تحقيقه غدًا، وهذا يحمل في داخله كذلك تناغمًا عميقًا مع حركة الطبيعة، فإن عالم التقنية الحديثة يتمثل في خط ممتد من الاستمرار الذي لا يعود. هذا ربما سبب الشعور بالخوف من الفوات، وكأننا أمام رحلة واحدة دون جدول تكرار يَعِدُ بالحافلة التالية. يُشير عددٌ من الدراسات التجريبية[1] إلى أن علاقة المشاهدة هذه تضعف عند الإنسان الحكم الأخلاقي المرتبط بالمشاهد التي يطَّلع عليها، وكأنه يبقى مشاهدًا دون أن يتحوَّل إلى شاهد. هنا يتكرَّر مشهد الوجود أحادي البعد، حيث لا تمثل هذه العلاقة ارتباطًا بالآخرين بقدر تعبيرها عن عزلة عنهم، رغم الاتصال المباشر مع تيار الصور ومقاطع الفيديو التي تعرضهم.

عالمُ المساءِ عالمٌ من الاتصال بالآخرين يكفل للإنسان العودة مجددًا في اليوم التالي. إذا كان الإنسان يحاول في النهار فعل ما يجب عليه فعله داخل عالم النور والإنجازات والاقتصاد والحساب الضروري، أي داخل عالم العدالة كما يُسمِّيه ليفيناس، فإن المساء عالم اتصال أرحم. عودة إلى رحم آخر يبقى فيه الإنسان متصلًا حتى ولو انسحب. اتصال الحكايات والأحاديث والشعر والأعمال الفنية يُبقي

على الوجود الأخلاقي للإنسان، حتى ولو كان جسده لم يعد قادرًا على القيام بما يجب القيام به. أشكال التواصل هذه لا تتحقق داخل علاقة الفرجة والمشاهدة، ولكنها تتطلب علاقة تواصل مسائية: علاقة من دموع. تلك العلاقة التي تُبقي على ارتباطنا بالموتى والغائبين حتى ونحن نعجز بشكل مباشر عن القيام بأي شيء لهم. العلاقة التي تحمي الانسحاب من أن يتحوَّل إلى لا مبالاة. حماية الانسحاب من الانقطاع. عالمُ المساء، بهذا المعنى، عالمٌ أخلاقيّ بطريقته الخاصة. عالمٌ واقعيٌّ باعتبار أنه استجابة لحاجة الجسد ومحدودية القدرة، لكنَّه في ذلك الوقت متجاوزٌ للواقع باعتبار أنه اتصال مباشر باللاتناهي الكامن في اتصال الإنسان بالآخرية. هذا الاتصال الكامن في الحديث. الحديث القائم على الإنصات السابق على التوقع. الإنصات المدفوع بالعناية والاهتمام. بالرعاية التي تجعل من وجود الذات منكشفًا على ما سيقول له الآخر. الانكشاف السابق على معرفة ما سيقول أو حتى السابق على توقعات مرتقبة لما سيقوله. هذا الحديثُ لقاء وجه لوجه مع الآخرين حتى ولو غابوا عن الحضور الفيزيائي المباشر. قد لا تكون استعادة المساء أكثر من الالتفات لمن حولك للحديث معهم. الحديث هنا أوَّلي مدفوع بالعناية والاهتمام. ولذا فهو يختلفُ عن حديث العلاقات العامة وحديث المشاريع والتخطيط المشترك.

د. عبـدالله المطيــري
باحث ومفكر من السعودية

المرجع:

(1) McKee, P. C., Senthilnathan, I., Budnick, C. J., Bind, M. A., Antonios, I., & Sinnott-Armstrong, W. (2024). Fear of Missing Out's (FoMO) relationship with moral judgment and behavior. PloS one, 19 (11), e0312724.
Amallia, S. (2022). FoMO (Fear of Missing Out) Among Youth Viewed From Herbert Marcuse's Perspective: FoMO (Fear of Missing Out) Kalangan Muda Ditinjau dari Perspektif Herbert Marcuse. Refleksi Jurnal Filsafat dan Pemikiran Islam, 22 (2).